السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٥)

قَدْ شَمَلَتْنَا بَرَكَاتُهُ ﷺ

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وَاحَسْرَتَاهُ إِنَّهُ يَتِيْمٌ!!

رَضَعَ الغُلامُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ أُمِّهِ آمِنَةَ لَـٰكِنْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ تَذَكَّرتْ وَالِدَهُ عَبْدَ اللهِ فَبَكَتْ كَثِيْراً لِفِراقِهِ ،... ثُمَّ حَاوَلَتْ أَنْ تُرْضِعَهُ فَلَمْ تَسْتَطِعْ ، لَقَدْ جَفَّ الحَلِيْبُ مِنْ ثَدْيَيْهَا!

فَأَرْضَعَتْهُ (ثُوَيْبَةُ : جارِيةُ أبي لَهَبٍ) حَيْثُ كَانَتْ تُرْضِعُ عَمَّهُ حَمْزَةَ رَضي الله عَنْهُ . لَـٰكِنْ كَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ وَقْتَئِذٍ أَنْ يُرْسِلُوا أَطْفَالَهُمْ إِلى مَرَاضِعِ البادِيَةِ ، فَيُمْضُونَ هُنَاكَ حتَّىٰ الفِطَام ، أَوْ بَعْدَ قَلِيْلٍ ، وَذَلِكَ بِهَدَفِ العَيْشِ في الهواء النَّقيِّ ، وفي أَحْضَان الطَّبيعَةِ الخلابة ،

راجين أَنْ يتعوَّد الغُلام على الطَّبِيْعَةِ القَاسِيَةِ ، وَيأخذَ دُرُوساً في الفُروسِيَّةِ والشَّجَاعَةِ ، والتَّكَيُّفِ مَعَ الصَّحْرَاء!

وَفِي كلِّ عامٍ ، كَانَتِ المُرْضِعَاتُ يَأْتِيْنَ مِنَ البَادِيَةِ إلىٰ الحَضَرِ ؛ لِيَأْخُذْنَ الأَطْفَالَ مَعَهُنَّ ، وَذَلِكَ بِهَدَفِ الحُصُولِ علىٰ الأَجْر والهَدَايا...

وفي ذَلِكمُ المَوْسِمِ انْطَلَقَتِ المُرْضِعَاتُ إلىٰ مكَّةَ ، وَرَاحَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَبْحَثُ عَنْ غلامٍ مِنْ أُسْرَةٍ غَنِيَّةٍ .

وَلِذَلِكَ رَفَضَتْ كَثِيْرٌ مِنْ المُرْضِعَاتِ أَنْ يَأْخُذْنَ مُحَمَّداً اليَتِيْمَ الفَقِيْرَ!!

وَيَشَاءُ الله تَعَالىٰ أَنْ تَعُوْدَ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيْلٍ إلىٰ زوجها دون أن تحْصُلَ على رضيعٍ واحدٍ .

ولمَّا أَخْبَرتْ زَوْجَها ، قَالَ : لـٰكِنَّ الأفْضَلَ لنا أَنْ نَعُوْدَ إلىٰ البَادِيَةِ وَلَوْ كَانَ معنا يَتِيمٌ!

فقالتْ حَلِيْمَةُ : آه! لَقَدْ تَذَكَّرْتُ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ غُلامٌ ، لَـٰكِنْ رَفَضْتُ أَخْذَهَ؛ لأَنَّه فَقِيرٌ ، وَيتيمٌ .

فَقَالَ الزَّوجُ : عُودي إلى أَهْلِ اليتيم ، فَخُذِيْهِ عَسَىٰ أَنْ يجريَ اللهُ الرِّزْقَ علىٰ يَدَيْهِ...!!

* * *

في الطَّرِيْق إِلَىٰ البَادِيَةِ

فَتَعَالَوا أَيُّهَا الأَحِبَّةُ البَرَاعم لِنَرَى مَاذَا حَدَث مَعَ المُرْضِعَةِ حَلِيْمَةَ ، وَذَلِكَ مُنْذُ أَنْ أَخَذَتِ الغُلامَ اليَتِيْمَ ﷺ ؟

لَقَدْ حَدَثَ مَعَها أُمُورٌ عَجِيْبَةٌ ، وَغَرِيْبَةٌ ، مِنْ ذَلِكَ مَثَلاً :

عِنْدَمَا جَاءَتْ مَعَ زَوْجِهَا ، وَوَلَدِهَا إلىٰ مَكَّةَ ؛ كانوا يَرْكَبُونَ علىٰ نَاقَةٍ هَزِيْلَةٍ ضَعِيْفَةٍ ، فَكَانَ الوَفْدُ الَّذِيْنَ يَسِيْرُوْنَ مَعَهُمْ يَتَضَايَقُونَ كَثِيراً مِنْ تَقْصِيرِ نَاقَتِهِم عَنِ الرَّكْبِ ، لَـٰكِنْ في طَرِيقِ العَودَةِ وَقَدْ رَكِبَ مَعَهُمُ الغُلام اليَتِيمُ إذا بِالنَّاقَةِ

الَّتي يَرْكَبُون عَلَيْها تسبق النُّوقَ جَمِيْعاً!

تَسَاءَلَ النَّاسُ : مَاذَا حَدَثَ لِحَلِيْمَةَ وَزَوْجِهَا ؟

لَمْ يَعْرِفوا أَنَّ السِّرَّ في ذَلِكَ هُوَ الغُلامُ اليَتِيْمُ ﷺ...

* * *

لَقَدْ زَادَتِ الخَيْراتُ وَالْبَرَكَاتُ

قد تَتَسَاءَلُونَ يَا أَحِبَّتي : وَمَاذَا حَدَث مَعَهُم غَيْرُ ذَلِكَ ؟

تَقُولُ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ : وَلَقَدْ كَانَ حَلِيْبُ ثَدْيَيَّ قليلاً ، حتَّى أَنَّ وَلَدِي لَمْ يَكُنْ يَشْبَعُ مِنَ الحَلِيْبِ ، وَمَا إِنْ وَضَعْتُ الغلاَم اليَتِيْمَ في حُضْنِي ، وَأَقْبَل عَلَىٰ ثَدْيي ؛ شَعَرْتُ أَنَّ الحَلِيْبَ يَسْرِي فِيهِ علىٰ غَيْرِ عَادَةٍ .

فَرَضَعَ اليَتِيْمُ حَتَّى رَوِيَ ، ثُمَّ أَرْضَعْتُ وَلَدِي حَتَّىٰ شَبِعَ وَنَامَ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا هُوَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ كُلِّه ؟

إِنَّكُمْ سَتَقُولُون بِصَوْتٍ وَاحدٍ يَا أَحِبَّتْي : السَّبَبُ يَكْمُنُ فـي أَنَّ سِـرَّ الحَيَـاةِ هُـوَ الغُـلامُ اليَتِيْمُ ﷺ .

وَهَذا مَا حَدَثَ أَيْضَاً مَعَ زَوْجِ حَلِيْمَةَ ، لَقَدْ كَانَتْ عِنْدَهُمْ نَاقَةٌ هَزِيْلَةٌ لا يُوْجَدُ في ضَرْعِهَا إلا القَلِيْلُ مِنَ اللَّبَنِ..

لَـٰكِنْ بَعْدَ ذَلِـٰكُمُ اليَوْمِ أَصْبَحَتِ النَّاقَةُ تحلبُ أَكْثرَ مِنْ غَيْرِها مِنَ النُّوقِ ، فَأَقْبَلَ الزَّوْجُ علىٰ زَوْجَتِهِ حَلِيْمَةَ ، وَقَالَ لَهَا : إِنَّ هَذَا الغُلامَ فِيْهِ سِرٌّ لا نَعْرِفُهُ يَا حَلِيمَةُ..!

فَقَالَتْ حَلِيْمَةُ : دَعْكَ مِنْ هَذَا! فَلَيْسَ في المَسْأَلَةِ سِرٌّ ، وَمَا إلىٰ هُنَالِكَ!

فَقَال الزَّوْجُ : وَهَا هُوَ الرَّاعِي يَعُوْدُ ، فَتَعَالَيْ لِنَسْأَلَهُ : هَلْ حَدَثَ مَعَهُ أَمْرٌ غَرِيْبٌ ؟

وَلَمَّا وَصَلَ الرَّاعي ؛ قال : يَا سَيِّدي! لَقَدْ حَدَثَ مَعي أَمْرٌ عَجِيْبٌ ، لَقَدْ كَانَتِ الغَنَمُ مَعِي هَزِيْلَةً لا تَحْلِبُ ، وفي هَذَا اليَوْمِ أَصْبَحَتِ الغَنَمُ تَـأْكُـلُ الأَعْشَـابَ ، وَتَحْلِـبُ الحَلِيْـبَ ، وَتَسْبِـقُ الأغْنَامَ الأُخْرَىٰ ، وَلَمْ أَدْرِ أَنَا وَبَقِيَّةُ الرّعْيَانِ سِرَّ مَا يَحْدُثُ!!

وَرَدَّدَ الأحِبَّةُ البَرَاعِمُ : إِنَّهُم لَمْ يَعْلَمُوا : أَنَّ سِرَّ الحَيَاةِ هُوَ الغُلام اليَتِيْمُ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَلَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ لَتَمسَّكُوا بِهِ أَكْثَرَ ، وَأَكْثَرَ...

* * *

يَا رَبِّ أَبْقِ أَخِيْ مُحَمَّداً

وَدَارَ الزَّمَنُ دَوْرَتَهُ ، وَرَاحَ الغُلامُ اليَتِيْمُ يَنْمو ، وَيَكبَرُ ، وَانْتَهتْ فَتْرَةُ الرَّضَاعَةِ وَكَانَ الفِطَامُ .

لَـٰكِنْ حَلَيْمَةُ السَّعْدِيَّة لمَّا رَأَتْ مِنْ خَيْراتِ وَبَرَكَاتِ ذَلكَ الغُلامِ ؛ اقْتَرَحَتْ على أمِّه آمِنَة أَنْ تُبْقِيَهُ عِنْدَهُم في البَادِيَةِ سَنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، فَوَافَقَتْ آمِنَةُ ، وَشَدَّدَتْ علىٰ الاهْتِمَامِ بِالغُلامِ ، وَصِيَانَتِهِ ، والمُحَافَظَةِ عَلَيْه .

وَكَانَ جَوَابُ حَلِيْمَةَ : وَاللهِ! لَوْ كَانَتِ المَسْأَلَةُ

بِيَدِي ؛ لَمَا أَعَدْتُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً ، فَكُلُّ مَا عِنْدَنا تَحوَّلَ إِلىٰ أَمْرٍ آخَرَ .

وَكَانَتْ لِلْغُلامِ اليَتِيْمِ ﷺ أُخْتٌ مِنَ الرَّضَاعَةِ اسْمُهـا (الشَّيْمَـاء) وَكـانَـتْ تَكْبَـرُهِ بِـالسِّـنِّ ، فَفَرِحَتْ بِهِ كثيراً ، وَلَمْ تَعُدْ تُفارِقُهُ أَبَدَاً ، فَتَارَةً تُدَاعِبُهُ ، وتُلاعِبُهُ ، وَتَارَةً تُمَازِحُهُ ، وَتُدَرِّبُهُ ، وَتَارَةً تَصْحَبُهُ مَعَ الرَّاعي إِلىٰ الصَّحْرَاء ، وَتَارَةً تَقُولُ :

يَـارَبِّ أَبْـقِ أَخِـي مُحَمَّـدا
حَتَّـىٰ أَرَاهُ يَـافِعَـاً وَأَمْـرَدَا
ثُـمَّ أَرَاهُ سَيِّـداً مُسَـوَّدا
وَأَكْبِتَ أَعَادِيْهِ مَعَاً والحُسَّدا
وَأَعْطِهِ عِزَّاً يَدُوْمُ أَبَدَا

* * *

يَا أُمَّاهُ : لَقَدْ قَتَلُوا أَخِي!!

وَعِنْدَمَا أَتَمَّ الغُلامُ اليَتِيْمُ الرَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِهِ حَدَثَ مَعَهُ حَادِثٌ خَطِيْرٌ : ذَاتَ يَوْمٍ عَادَ وَاحِدٌ مِنْ أَولادِ حَلِيْمَة إلىٰ البَيْتِ مُسْرِعاً ، فَدَخَل البَيْتَ وَهُوَ يَصْرُخُ : يَا أُمَّاهُ! لَقَدْ قَتَلُوا أَخِي مُحَمَّداً!

وَتَركَتْ حَلِيْمَةُ كُلَّ شيءٍ في يَدِهَا وانْطَلَقَتْ نَحْوَ بَابِ البَيْتِ ؛ وَهِيَ تَقُولُ : مَاذَا ؟! مَنِ الَّذي قَتَلَهُ ؟ أَلَمْ أُوصِكَ بِهِ... ؟!

وَأَخَذَتْ ابْنَها بِيَدِه وَانْطلقا إلىٰ حَيْثُ الحَادِثُ الغَرِيْبُ ، فَوَجَدَتِ الغُلامَ اليَتِيْمَ مُسْتَلْقِياً علىٰ ظَهْرِهِ ، وَقَدْ تَغَيَّر لَوْنُ وَجْهِهِ ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ

تُحَـرِّكُـهُ ، وَتُقَبِّلُـهُ ؛ وَهِـيَ تَقُـولُ : أَأَنْـتَ حَـيٌّ يَا وَلَدِي ؟! مَاذَا أَقُوْلُ غَداً لأُمِّكَ آمِنَةَ ، وَجدِّكَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟!

ثُمَّ فَهِمَتْ أَنَّ الحَادِثَ يَتَلَخَّصُ بِمَا يَلِي : لَقَدْ جَاءَ ثَلاثَةٌ لَيْسُوا كَالرِّجَالِ ، فَعَمَد أَحَدُهُم إِلَيْهِ ، فَأَضْجَعَهُ علىٰ الأَرْضِ ، وَشَقَّ صَدْرَهُ دُوْنَ أَلَمٍ ، ثُمَّ أَخْرَجَ قَلْبَهُ ، وَغَسَلَهُ بِالمَاءِ ، والثَّلْجِ ، ثُمَّ أَعَادُوهُ إلى مَكَانِهِ ، ثُمَّ أعادوا مكانَ الشَّقِّ إلى مَا كَانَ عَلَيْه!!

عِنْدَئِذٍ كَادَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ أَنْ تَفْهَم سِرَّ هَذَا الغُلامِ اليَتِيْمِ ، فَالْمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ أَمْرَاً عَادِيَّاً ، لِذَلِكَ قَرَّرَتْ في نَفْسِها أَنْ تُعِيدَ الغُلامَ اليَتِيْمَ إلىٰ أُمِّهِ ؛ خَوْفاً مِنْ أنْ يُصَابَ بِمَكْرُوهٍ .

وفي صَبيحةِ اليومِ الثَّاني رَكِبَتْ حَلِيْمَةُ مع

زَوْجِها والغُلام اليَتِيْم ، وانْطَلَقُوا نَحْوَ مَكَّةَ ، وَهُنَاكَ أَعَادَتْهُ إلىٰ أمِّهِ ، وَقَصَّتْ عَلَيْها الحِكَايَاتِ الغَرِيْبَةَ الَّتي رَأتْها مِنْهُ ، فَزَادَتِ الحَيْرَةُ وَالدَّهْشَةُ في قَلْبِ آمِنَةَ...

وَآخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

* * *